# كلمة اللّه
# عند شعب العهد القديم
# وفي العصر المسيحيّ الباكر

القَسّ عيسى دياب[1]

## مقدّمة

كان لكلمة الله حضور وتأثير ومفعول في الشرق الأدنى القديم، أو في التراث الإسرائيليّ الشفويّ، حتّى قبل إنتاج الكلمة المكتوبة. نعني بهذا بأنّ مفهوم "الكلمة" كفعل مجرّد سبق صورة "الكلمة" كمادّة مكتوبة، بل أتجرّأ وأقول بأنّ الكلمة المكتوبة، عندما حضرت بصورتها المادّيّة، قلّصت قيمة "الكلمة المجرّدة لأنّها حدّدتها في إطار مادّيّ انحبس الفكر البشريّ فيه مع الوقت.

إنّي، وعن اقتناع، أعزو السبب الرئيس لكلّ "أصوليّة" بالتضحية بفضاء الكلمة المجرّدة اللامحدود لحساب الكلمة المكتوبة ذات الأفق الضيّق. إنّ هذا يصحّ على المسيحيّة مثلما يصحّ على غيرها من الديانات، وخاصّة اليهوديّة والإسلام. نحن أبناء الشرق، أبناء الفكر الساميّ الطقوسيّ والأسراريّ والشاعريّ، المعبر بلا حدود؛ إنّك لتفهمه ولا تستوعبه لأنّك لا تدرك أعماقه كلّها.

### أوّلاً: «كلمة الله وأبعادها عند شعب العهد القديم»

الكلمة العبريّة المرادفة لـ"كلمة" هي "د ب ر". إنّ أصل هذه الكلمة والصورة التي اشتقّت منها غير واضح في تاريخ الشرق الأدنى القديم، لكنّها كانت دائمًا تعبيرًا تصويريًّا عن فكرة، أو مفهوم أو حقيقة أو شيء أو فعل؛ فمنذ البداية، كان للكلمة العبريّة "د ب ر" بُعد عقليّ وفكريّ، وبُعد ديناميّ، هي صورة فكريّة أو تصوير كلاميّ لشيء مادّيّ، وقوّة. لذلك، ترجمت الكلمة العبريّة أحيانًا إلى "شيء"، "أمر" أو "عمل". وعندما ترجمت إلى "كلمة"، انشدّت الأبصار الذهنيّة إلى الشيء أو الأمر أو العمل الكامن وراء الكلمة. إنّ أوضح مثال على ما أقول هو ما جاء في مز ٣٥: ٢٠: "لأنّهم لا يتكلّمون بالسلام، وعلى الهادئين في الأرض يتفكّرون بكلام مكر". وبحسب هذه الآية، تنشدّ الأبصار إلى السلام الذي لا يحضر في كلامهم، وإلى المكر الذي يحضر في أفكارهم وكلامهم.

#### ١. الكلمة وسيلة إعلان الله وحضوره وعمله

الكلمة هي الوسيلة الأعلى والأسمى التي أعلن الله بها نفسه وإرادته الصالحة للبشر. هذا يعني أنّ الديانة الكتابيّة هي ديانة سَمَع قبل أن تكون ديانة نَظَر. من هنا نفهم مدى أهمّيّة «الأذن» في الكتاب المقدّس ولعلّ العبارة المشهورة، «من له أذن للسمع فليسمع»، التي تتردّد في الكتاب المقدّس، تعكس لنا هذه الأهمّيّة. هذا لا يعني أنّ ديانة الكتاب المقدّس بجوهرها هي ديانة كلاميّة، كالإسلام مثلاً، أو ديانة مجرّدة كمنظومة فلسفيّة، بل أنّ كلمة الله، متميّزة عن كلام البشر،

(١) من الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة. دكتوراه في اللاهوت. دكتوراه في تاريخ ديانات الشرق الأدنى القديمة. دكتوراه في ثقافات ومجتمعات العالم العربيّ والإسلاميّ. أستاذ الدراسات الكتابيّة والحضارات الساميّة.

تمدّ مفعولها على مدى الشخص الذي يقولها، والفعل الذي تشير إليه، والزمن الذي تحضر فيه. لذلك، فأنسب نعت توصف به هو «الحقيقة» (رج ٢ صم ٧: ٢٨؛ يو ١٧: ١١). والحقيقة هنا ليست تجريدًا، بل تعني الحقيقة العمليّة التي هي الإخلاص والأمانة والمحبّة العمليّة.

يجرّنا هذا إلى القول بأنّ الله، عندما أعلن عن نفسه بالكلمة للبشر، أعلن لا عن منظومة فلسفيّة، ولا عن صور ميثولوجيّة، ولا عن قوى طبيعيّة مؤلّهة، بل عن فعل محبّة إلهيّة. لقد كان الله حاضرًا وعاملاً وسط شعبه. إنّ للكلمة «الإعلانيّة» إذًا عملاً وقوّةً و«ديناميّة».

«يهوه» إله خفيّ في الكتاب المقدس (خر ٣٣: ٢٠)، لا تجسيم له ولا شكل بمفهومنا للتجسيم وللشكل. وليس يهوه «قوّة» أو «مبدأ»، كما في بعض النظريات اللاهوتيّة المتحرّرة. «يهوه» هو كيان شخصيّ أو شخصانيّ، له وعيه وحضوره وعمله في الكون وفي وسط شعبه. من بين الأمور الكثيرة التي يتوسّطها الله في حضوره هي «الكلمة» التي هي أيضًا الفعل. يقودنا هذا إلى القول بأنّ الله حاضر في وسط شعبه بكلمته أو بعمله. إنّ العهد القديم بكامله هو قصّة، لكن ليست مثل باقي القصص المسلّية، هي قصّة حضور الله وعمله في وسط شعبه. كان الله حاضرًا في الأحداث التاريخيّة التي كان شعبه يمرّ فيها. بالنسبة إلى المؤرّخ العاديّ، هذا مجرّد تاريخ دنيويّ. لكن بالنسبة إلى النبيّ، وللتقيّ، وللصدّيق، هذا تاريخ عمل الله في وسط شعبه. لذلك سمّي العهد القديم، بل والكتاب المقدّس، بحقّ «تاريخ الخلاص». في هذا كلّه، تتماهى كلمة الله بعمل الله لأنّه يقول فيصير، ويأمر فيكون. إنّ قولنا كلمة الله «تاريخيّة» ليس بمعنى بأنّها تخطّ التاريخ، أو تصوّر التاريخ بكلام، بل بمعنى أنّ الله يصنع بها التاريخ، بل وتصبح هي الأحداث التاريخيّة، والحدث التاريخيّ ما هي إلاّ «كلمة» من الله مرسلة إلى شعبه.

الآن يمكننا أن نتطرّق إلى مفهوم «الخلق بالكلمة» في الكتاب المقدّس، هذا المفهوم الساحق القدم في تاريخ الشرق الأدنى والمتوفّر بكثرة في الأناشيد الشرقيّة التي انتقلت إلى سفر المزامير في الكتاب المقدس (رج مز ٣٣: ٤ي)، وأخذ به بعض الأنبياء (أش ٤٠: ٢٦). يجب أن نبتعد عن كلّ الصور الميثولوجيّة المتوفّرة بكثرة في التفاسير الإسلاميّة –أي بمجرّد أن ينطق الله بالكلمة يتكوّن الشيء– عند فهمنا للخلق بالكلمة. فبما أنّ الكلمة لا تتوقّف على فعل الكلام، بل تتعدّاه إلى العمل، يكون الخلق عمل الله بواسطة القوانين الطبيعيّة التي هي أيضًا نتيجة عمل الله الخلاّق.

## ٢. الكلمة وسيلة شهادة

إن كانت «الكلمة» هي وعاء الإعلان الإلهيّ، وحضوره الفاعل في وسط شعبه، فإنّها بالمقابل هي أيضًا الشهادة التي يؤدّيها المؤمن في حضرة الله عند عبادته.

صيغ إيمان إسرائيل، ليس بشكل تصاريح عقائديّة، كما نفعل نحن اليوم، بل بشكل قصّة أو رواية، وما قوانين الإيمان التي استعملها إسرائيل في عبادته إلاّ قصص مختصرة عن الرواية الكبيرة: «كنت عبدًا، فاختارني الربّ لنفسه، فدعاني وحرّرني، وعمل معي العهد وأرسلني». اعتاد شعب إسرائيل أن يعترف بإيمانه بسرد قصّة تحريره. بكلام آخر، قانون الإيمان في إسرائيل هو قصّة تحريره ومنحه الأرض والنسل (رج خر ١٢: ٢٦–٢٧؛ ١٣: ٨، ١٤؛ يش ٢٤، تث ٢٦؛ إلخ). من خصائص التربية والتعليم عند الساميّين القدماء هو «التعليم بالقصّة». هذه وسيلة اتبعها الربّ يسوع المسيح في تعليمه. والعهد القديم تعليم دينيّ بواسطة قصص، في أكثر الأحيان، متسلسلة ومجموعة في قصّة واحدة طويلة. لذلك، فقد شهد إسرائيل عن إيمانه (اعترف به) بواسطة سيرته الذاتيّة (قصّة حياته).

إنّ هذه الكلمة الشهاديّة ما هي إلاّ الكلمة التي كلّم بها الله إسرائيل عبر تاريخه. فإسرائيل، بالشهادة أيضًا، يستحضر ليس كلمته، بل كلمة الله، إيمانًا منه بأنّ هذه الكلمة التي فعلت عندما قالها الله، ستفعل أيضًا عندما يقولها هو في محضر الله، لأنّ «كلمة الله» حيّة وفاعلة في كلّ الظروف.

## ٣. «كلام الله» في الكرازة النبويّة

بما أنّ «الكلمة» كانت بمثابة الواسطة لإعلان الله وحضوره وعمله في وسط شعبه، ابتداء من القرن التاسع ق.م.، استحوذ النبيّ بهذه الواسطة، فصار النبيّ هو المتكلّم الرسميّ للبلاط السماويّ. أصبح النبيّ هو المعبّر عن فكر الله، عندما كانت تأتيه كلمة الله وهو بدوره ينقلها إلى الشعب. في الحقبة النبويّة أصبح إبراهيم نبيًّا (تك ٢٠: ٧)، وكذلك موسى (خر ٣: ٤؛ تث ١٨: ١٥)، وهرون (خر ٤: ١٤-١٦)، وهنا تفوّقت النبوة على الكهانة (رج إر ١٨: ١٨).

لقد جاءت كلمة الله إلى الناس، في الحقبة النبويّة، بصور عديدة: الكلام العقلانيّ الذي كان غالبًا ما يأخذ شكل الوعظ أو شرح العقيدة؛ ثمّ الرؤى والصور التي كان الأنبياء يستعينون بها لعرض كلمة الله. نستطيع أن نتكلّم هنا باستفاضة، لو كان يسمح لنا الوقت، عن علاقة «الكلمة» بالليتورجيّا. في الخطاب النبويّ صارت كلمة الله لا تسمع فقط، بل تُشاهد أيضًا، فأضيفت إلى السمع مَلَكة النظر في التعامل مع كلمة الله.

## ٤. كلام الله في الشريعة

في مفهوم العهد، كانت الشريعة تعبيرًا عن إرادة الله لشعبه، فهي بهذا تتماهى مع الإعلان بالكلمة. دعيت «الوصايا العشر» «الكلمات العشر» (خر ٣٤: ٢٨)، ذلك لأنّ الوصيّة تعبّر عن إرادة الله تمامًا مثل الكلمة. وعندنا مز ١١٩ الطويل خير شاهد على تماهي الكلمة والشريعة.

ذهب بعضهم إلى وجود إشكاليّة بين الشريعة الأنبياء، وهذا ليس صحيحًا، لأنّ كلي الطرفين يمثّلان الكلمة. ما هو صحيح هو أنّه كان لأنبياء الصحوة في القرن الثامن ق. م.، وعلى رأسهم عاموس وهوشع، مأخذ ليس على الشريعة أو النظام الذبائحيّ، بل على كيفيّة تطبيق الشريعة. فالشريعة شكل ومضمون؛ الشكل هو ليتورجيّ، والمضمون خُلُقيّ. ويجب أن يحرص العابد على كلا العنصرين. لقد كانت مشكلة يسوع مع الفرّيسيّين هي نفسها مشكلة عاموس وهوشع وغيرهما، وهي أنّ الفرّيسيّين حافظوا بتدقيق كبير على شكل الشريعة دون مضمونها الخُلُقيّ، وعلى هذا اعترض لديهم.

### ثانيًا: تطوّر مفهوم "كلمة الله" في حقبة ما بين العهدَين

هناك تطوّر سلبيّ وآخر إيجابيّ. الأوّل بانت بذوره في عصر عزرا ونحميا، والآخر عودة إلى المفهوم الأصيل الذي تفتّح بفعل اختلاط اليهود بالحضارة الفارسيّة، ولكن خاصّة الحضارة اليونانيّة.

أخذت التوراة (الشريعة) أهمّيّة خاصّة وبُعْدًا لاهوتيًّا بفضل جهود عزرا. وقد صارت التوراة جزءًا من الهويّة الإسرائيليّة الجديدة أو اليهوديّة. كان عزرا كاتبًا وكاهنًا، و"قد هيّأ قلبه لطلب شريعة الربّ والعمل بها، وليُعلِّم إسرائيل فريضة وقضاء" (عز ٧: ١٠). يقدّمه لنا سفر عزرا—نحميا كـ"موسى الجديد"، نسبة إلى موسى "القديم" الذي أعطى إسرائيل توراته بحسب التقليد. قبل عزرا، كان منصب الكاتب منصبًا سياسيًّا رفيعًا بامتياز (٢ مل ٨١: ٨١؛ ٢ مل ٢٢: ٣وت؛ أش ٣٦: ٣؛ رج ٢٢: ٥١؛ إر ٦٣: ٢١). أمّا في أيّام عزرا، عندما أصبحت التوراة "نقطة الارتكاز" في هويّة "إسرائيل الجديد"، صارت وظيفة "كاتب" وظيفةً مقدّسة، وتعني "المتخصّص بتفسير التوراة". وصار الكاتب قائدًا روحيًّا في إسرائيل. وهكذا نرى في مشهد قراءة التوراة أنّ عزرا الكاتب هو من يتصدّر المحفل، بينما الكهنة واللاويّون يساعدونه (نح ٨). صارت التوراة مرجعًا للقضاء الدينيّ والمدنيّ في إسرائيل؛ فهي "شريعة إله السماء" وعزرا كاتبها (عز ٧: ١٢). ويوصي ملك فارس عزرا قائلاً: "أمّا أنت، يا عزرا، فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكّامًا وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر من جميع مَن يعرف شرائع إلهك، والذين لا يعرفون فعلّموهم. وكلّ مَن لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك، فليُقضَ عليه عاجلاً، إمّا بالموت، أو بالنفي، أو

بغرامة المال، أو بالحبس" (عز ٧: ٢٥-٢٦). نحن هنا أمام تشريع دينيّ ومدنيّ (دين ودولة)، إنّها ثيوقراطيّة بامتياز. ويعزّز هذا الاعتقاد الدور الذي لعبه نحميا الذي اهتمّ ببناء الحياة المدنيّة والاقتصاديّة لإسرائيل الجديد، لكن لم يكتمل "العقد" إلا بجلب عزرا لإنماء الحياة الدينيّة. وهذا المفهوم في الحكم ليس غريبًا عن الشرق الأدنى، وربّما الإسلام اليوم هو أوضح صورة عنه.

جمع عزرا بين وظيفتَي الكاتب والكاهن، بينما كان كهنة ما قبل السبي لا يتعاطون بقراءة وتفسير الشريعة، وكان هذا من مهمّات الأنبياء. وأهمّيّة "التوراة"، وكذلك أهمّيّة الكاتب، ستتضخّم في الزمن اللاحق للسبي لنصل إلى زمن المسيح حين كانت التوراة "مقدّسة"، والكاتب من أهمّ القادة. إنّ هذا التقديس للتوراة، الذي يظهر بوضوح في الكتابات المنحولة لما بين العهدين، دفع ببعض التيّارات اليهوديّة إلى الكلام عن "تنزيل" التوراة، الشبيه جدًّا بمفهوم "تنزيل القرآن" في الديانة الإسلاميّة. وهناك جهات يهوديّة في زمن ما بين العهدين، أو زمن المسيح أو حتّى في وقتنا الحاضر، "تقدّس" مخارج الألفاظ في التوراة، وتعتبر النصّ التوراتيّ المترجم غير مقدّس.

لكن كان للسبعينيّة فعلها الفاعل في ردّ مفهوم "كلمة الله" إلى سابق عهده. لقد ساهمت السبعينيّة في هذا العمل بطريقتين: الأولى بترجمتها الأسفار المقدّسة "بتصرّف" في كثير من المواقع، والثانية بالتصاق "الكلمة" بمفهوم "اللوغوس" في الفكر الهيلّينيّ.

إنّ ما دفع اليهود إلى عقد مجمع يَمْنِيَا وتحديد الأسفار القانونيّة هو أنّ المسيحيّين اتّخذوا السبعينيّة بمثابة كتاب مقدّس لهم، ولم يكن يهود فلسطين يرتاحون لها، إن كان لجهة عدد الأسفار التي تتضمّنها أو لجهّة الترجمة بتصرّف.

ولا يخفى على قارئ العهد الجديد بأنّه كان يوجد تيّاران حيال "الكلمة" في المسيحيّة الباكرة: تيّار متمثّل بالتقليد المتّاوي المتأثّر باليهوديّة الفرّيسيّة الذي كان يشدّد على "الحرفيّة"، فيحاول أن يستفيد من مخارج الألفاظ في النصّ العبريّ ليُري تحقّقها الحرفيّ؛ فهو القائل: "إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتّى يكون الكلّ؛ فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت الله" (مت ٥: ١٨-١٩). أمّا التيّار الثاني فهو التيّار اليوحنّاويّ المتأثّر باليهوديّة الهلّينيّة الذي رأى أنّ الإعلان الإلهيّ ما هو إلا "اللوغوس" الأزليّ. ويتبنّى هذه الفكرة كاتب الرسالة إلى العبرانيّين (عب ١: ١-٢).

لقد ظهر هذا التوتّر بين الكلمة بحدودها الحرفيّة والكلمة الحيّ التي لا يستطيع القارئ أن يسبر أغوارها في تاريخ الكنيسة وخاصّة في عصر الإصلاح. اتهم كثيرون لوثر بالحرفيّة، ويتسلّح به أتباع الأصوليّة البروتستانتيّة المعاصرة. برأينا يجب أن يُفهم لوثر في عصره على أنّه ردّة فعل على الليتورجيّا المبهمة للعابد العاديّ، وندرة وجود الكتاب المقدّس واستعماله. إنّ التطوّر الطبيعيّ لآراء لوثر وموقفه من "الكلمة" نراه، برأينا، عند كارل بارث الذي أبرز، وبشكل مثير للدهشة، يسوع المسيح الكلمة الحيّ الذي لا تسعه ولا تحدّه كلّ الكلمات المكتوبة.

## الخاتمة

لقد أبرزت دراسة "كلمة الله في العهد القديم وفي المسيحيّة الباكرة وجود نوعين من التوتّر: توتّر بين العقلانيّة والتصوير في إعلان كلمة الله. لقد شدّد الأنبياء الأوّلون على "العقلانيّة" في الإعلان الكلاميّ، وأدخل الأنبياء المتأخّرون الرؤى والتصوير الرمزيّ على الإعلان الكلاميّ. لقد تجسّد هذا النوع من التوتّر أيضًا بتوتّر بين "الكهانة" والنبوّة، أو بتدقيق أكثر، بين الحفاظ على شكل الممارسة الدينيّة أو الشريعة فقط، والمنادين بضرورة عيش الشريعة أو الممارسة الدينيّة على المستوى الخلقيّ. وهذا تحدّ يواجه كلّ المتعاملين مع الليتورجيّا والكتاب المقدّس.

النوع الثاني من التوتّر هو توتّر بين الحرفيّة أو اللفظيّة والمعنويّة (من معنى). إنّه توتّر بين فريق اجتهد في السعي

إلى المحافظة على مخارج الألفاظ وإلى تقديس النصّ، وفريق يرى أنّ الكتاب المقدّس لا يحفظ في الذهن في نصوص نستظهرها، بل في القلب في عمل محبّة نعيشه. "السبت للإنسان لا الإنسان للسبت"، وهذا تحدّ كبير أمام الكنيسة المسيحيّة، كيف تتجاوز إطار الحرفيّة القاتلة في مجتمع إسلاميّ يشدّد على الألفاظ في الكتابات المقدّسة.

إنّ هذين التوتّرين، هما التحدّيان الكبيران اللذان يجب أن يبحث فيهما:

– كيف يتمّ التوفيق بين إعلان الكلمة في التعليم وإعلانها في الليتورجيّا، دون أن تأخذ وسيلةٌ شيئًا من الوسيلة الأخرى؟

– كيف نشجّع شعبنا على قراءة الكتاب المقدّس، ونحافظ عليه من الأصوليّة الدينيّة، في مناخ مفعم بالأصوليّات؟